

الحرف العربي والشخصية العربية

مدخل لا بد منه :

إلى المساهمة في تحديث علوم اللغة العربية أسارع فأوضح بأنها محاولة جادة لتأصيلها ، بالعودة بها إلى أصول أصالتها ، وإن تداخلت وتماست مع ما ذكرته وما لم أذكره من علوم اللغة الحديثة ، مما يؤهلها لتأصيل بعض جوانب هذه العلوم أيضا .

ولكن أعرضت العلوم اللغوية الحديثة بما فيها الألسنية والأسلوبية والدلالات ... عن الخوض في أصول نشأة اللغات لضبايتها التاريخية ، وعن التصدي لعلاقة أصوات الحروف بمعاني الألفاظ ، لانفصام هذه العلاقة بعامة في اللغات الغربية ، فإن هذه الدراسة قد انطلقت من هاتين المسألتين بالذات للبرهان على فطرية اللغة العربية وأصالتها ، مما يحفظها من مزاجية علماء اللغة المحدثين ومن النزوات الشعرية والأدبية ، ومن مختلف الغزوات الثقافية المضادة ، في كل ما يتعارض مع مقومات أصالتها .

فنشأة اللغة العربية التاريخية والاجتماعية والثقافية ، تختلف عنها في اللغات الغربية التي كانت مشار تأملات علمائها وموضع تطبيق نظرياتهم في علومهم اللغوية الحديثة .

وهكذا ، فإن هذه الدراسة ، بما تلقيه من أعضاء جديدة على الجوانب التاريخية والصوتية معا من خصائص اللغة العربية ، وعلى العلاقة الجدلية بين

هذا المدخل ، ليس مجرد تمهيد مدرسي يعرف القارئ بهذه الدراسة ، أو خلاصة جامعة لبנוدها ، أو دليلا نظريا يهدي إلى مسالكها ، فحسب . وإنما هو فوق ذلك ، محضر موجز لندوة فكرية مضمرة ، قد استمر الحوار فيها بيني وبين الحروف العربية أعواما عديدة .

فكان لا بد من هذا المدخل ، يللم من جوانب ذلك الحوار الطويل في مخطط عام يجعل من هذه الدراسة وحدة متماسكة ، على تعدد قضاياها وتشعب مشاكلها وإشكالاتها .

أولا : في موقع هذه الدراسة :

هذه الدراسة تعنى مبدئيا بأصوات الحروف العربية كوحدات صوتية (فونيمات) ، ولذلك فهي تتداخل مع علم الصوت العضوي (الفوناتيك) . كما تقوم أصلا على صدى أصوات الحروف العربية في النفس استشفافا لخصائصها ومعانيها ، لتتأس بذلك مع علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) . وهكذا ، فإن هذه الدراسة هي ألصق ما تكون بعلم النفس اللغوي ، ويعلم الأصوات السمعي ، بعض من علوم اللغة الحديثة .

وكيلا يتبادر إلى ذهن القارئ إني أنحو بهذه الدراسة

في باريس ، كان في مؤلفاته الأولى من كبار المتخصصين لرمزية الحرف العربي ، فاللفظة العربية كانت في رأيه ، مجرد مصطلح على معنى والحرف العربي لا يوحى بأي معنى من المعاني . لم يرجع عن هذا الرأي معتذرا ، ومشكورا إلا بعد أن أمضى بضعة عشر عاما في تدريس اللغة العربية والتأليف فيها ، كما سيأتي .

لذلك وتذليلا لهذه الصعوبات المتوقعة ، وترويضاً لسمع القارئ غير المتخصص على استشفاف الخصائص الحسية والمحيات الشعورية الكائنة في أصوات الحروف العربية ، قد مهدت لهذا الجانب الصوتي النفسي من هذه الدراسة ، بفصل خاص عن الحواس الخمس ، ثم أتبعته بفصل آخر عن آراء علماء اللغة حول مسألة الإيحاء في أصوات الحروف العربية .

كما أتبعتهما بثالث عن الإيحاءات الحسية والشعورية في أصوات الحروف العربية ، قد تناولت فيه عمليتي (الاستبطان والتقمص) العائدين إلى المنهجين الذاتي والتمثيلي في علم النفس .

ولا أكتف القارئ ، إني أعدت صياغة هذه الدراسة مرات عدة ، في محاولات متأنية لتبسيط قضاياها ، وإضفاء الصبغة الأدبية على شروحها ، كيما تكون في متناول المثقف العادي غير المتخصص ، فهي تنتمي إلى الفكر القومي بقدر ما تنتمي إلى الفكر اللغوي .

ومع ذلك أرى من المفيد أن أنه منذ الآن إلى مشاق الرحلة التي تنتظرنا مع الحروف العربية عبر هذه الدراسة ، وإلى أنه لابد من استيعاب كل مرحلة من مراحلها قبل الانتقال إلى المرحلة التالية . فهذه الدراسة إنما هي حلقات مترابطة متكاملة ، قد قامت على منطلقات فكرية أكثرها مستحدث ، إذا ما فات

الحرف العربي والشخصية العربية ، من شأنها أن تجعل علماء اللغة الغربيين والعرب المحدثين يعيدون النظر في القرارات القطعية التي اتخذت منذ القرن التاسع عشر بتحريم ارتياد هذه الآفاق من بحوثهم اللغوية . فما لم يصح في لغاتهم قد صح في اللغة العربية ، ولكن ما كان أشق التحقق من ذلك .

فهذه الدراسة كان لا بد لها أن تتناول قضايا فكرية عديدة تتصل بعلوم الأصوات والنفس واللغة والتاريخ والآثار والاجتماع والفيزيولوجيا ، وما إليها من مسائل الفن والأخلاق ، مما عرضها بالضرورة إلى كثير من التعقيد . على أن أعقد ما في هذه الدراسة ، هو جانبها الصوتي النفسي .

فللكشف عن العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها ، لابد من الاستعانة بالمنهج الذاتي في علم النفس (الاستبطان) ، للاهتمام إلى خصائص أصوات الحروف ومعانيها . كما لابد أيضا من الاستعانة بالمنهج التمثيلي في علم النفس (التقمص) لمعرفة كيفية قيام الانسان العربي بإبداع أصوات حروفه وألفاظه ، للتعبير عن حاجاته ومعانيه .

وهذان المنهجان ، بصدد تعاملهما مع أصوات الحروف العربية ومعانيها ، يستلزمان رهافة في السمع ، وشفافية في المشاعر ، وتذوقا رفيعا في الأدب ، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية .

فكيما يستطيع القارئ أن يستخلص ما في صوت حروف ما من الأحاسيس الحسية أو المشاعر الانسانية لابد أن تتوافر فيه الحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا . ومن يفتقر لها قد يجد هذه الدراسة مجرد توهم لا رصيد له من حقيقة ، أو ضربا من الكلام المنمق الأنيق لا يقنع أحدا .

فالأستاذ محمد المبارك ، خريج جامعة السربون

القارىء بعضها صعب عليه استيعاب ما يتلوها من الحلقات .

ثانياً - في المنهج الذي اتبعته مع هذه الدراسة :

لقد انطلقت في هذه الدراسة من مقولة فطرية اللغة العربية ، بمعنى أن أصوات حروفها مقبسة مباشرة من الطبيعة المادية أو الانسانية ، وهذا يستتبع القول بأن معنى اللفظة العربية لا يزال كامناً في جذور أصوات حروفها ، وأنه بالتالي ليس إلا محصلة لمعاني حروفها .

ولكن كان علماء اللغة والآثار والتاريخ ، لم يعترضوا حتى الآن على ما يؤكد فطرية اللغة العربية ، من نقوش أو آثار مادية غارقة في القدم ، إلا أن ذلك لا ينفي صحة هذه المقولة .

فاللغة العربية قد بدأت نشأتها الأولى على الهواء الطلق قبل الألف العاشرة قبل الميلاد . ثم ترعرعت في ظل حياة رعوية مشردة ، قصورها خيام ، وقلاعها ظهور مطايا ، وحصونها بطولات ، وأهتها كواكب سماء ونجوم ، فكانت بذلك أقل لغات الدنيا حاجة إلى التعامل مع المادة الأرضية . ومع ذلك ، إذا كان ثمة آثار مادية من نقوش وسواها ، فهي لاتزال قابضة تحت ركامات من الرواسب والرمال .

وما أحسب أن ثمة من داع لانتظار معاول الأثاريين المنقبين ، كيما نتصدى نحن لمسألة فطرية اللغة العربية مادام قد بقي لنا من تلك المراحل الفارقة في ظلام ما قبل التاريخ آثار مادية ثلاثة ، هي : الحرف العربي ، والانسان العربي ، والموطن الذي احتضنهما عبر مراحل التاريخ .

فهذه المعطيات الثلاثة ، إذا صحت مقولة فطرية اللغة العربية ، تفترض بالضرورة وجود علاقات أصيلة متبادلة فيما بينها ، ولا بد لهذه

العلاقات أن تخلف لنا عبر العصور بعض المستحاثات الأثرية ، سواء في طيات أصوات الحروف العربية ، أو في الطابع الشخصي المميز للانسان العربي بما يتوافق أصلاً مع التاريخ الحضاري للجزيرة العربية . وللتحقق من صحة مقولة ((فطرية اللغة العربية)) ، قد اعتمدنا طريقة الخطأ المفترض في البرهان الرياضي .

فهذه الطريقة تفترض خطأ ، صحة الطلب ابتداءً ، وهذا الطلب الذي افترضنا صحته يقودنا إلى نتيجة مباشرة متصلة به أشد الاتصال ، فبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة . وهذه النتيجة المفترض صحتها تبعاً لصحة الطلب تقودنا بالضرورة إلى نتيجة مباشرة ثانية ، فبرهن على صحتها في نطاق معطيات المسألة إياها .

وهكذا الأمر في سلسلة متماسكة من الافتراضات والنتائج ، إلى أن تتطابق النتيجة الأخيرة مع حقيقة واقعية جديدة لا مجال لرفضها ، فتسحب هذه الحقيقة بحكم المنطق الرياضي على ما سبقها من الافتراضات والنتائج .

أما إذا وقع العكس ، فتعارضت النتيجة الأخيرة مع حقيقة ثابتة ، فإن هذا التعارض ينسحب بالضرورة على الافتراضات السابقة ونتائجها .

ثالثاً : حول سلسلة الافتراضات :

الافتراض الأول :

إذا افترضنا خطأً ، أن اللغة العربية فطرية النشأة ، فإن ذلك يقودنا مباشرة إلى القول ببداية الحرف العربي ، وفجرية الانسان العربي ، وبعلاقة جدلية بينهما .

فلو أن الانسان العربي قد اقتبس حروفه من

الجزيرة العربية عبر مراحلها الحياتية الثلاث (الغاية والزراعية والرعووية) ، وعن جذور هذه المراحل في الحروف العربية . كما تطرقت إلى دور المرأة وواقعها في هذه المراحل ، سواء من حيث مساهمتها في إبداع الحروف العربية ، أو من حيث أوضاعها الاجتماعية . وذلك كله للتثبت من صحة (فجرية) الانسان العربي أيضا .

ولما كان حديثنا عن كل ما جاء في الفصلين السابقين عن بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، يتوقف أصلا على التثبت من أن الجزيرة العربية هي المهد الأصلي لكل منهما ، فلقد كرست الفصل الثالث للبرهان على أنها هي أصل الحضارات في المنطقة العربية . وبترجيح شديد هي مهد الحضارة الانسانية .

وتأكيدا للعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية كرست الفصلين (الرابع والخامس) للحديث عن ((شخصيتي)) الانسان العربي والحرف العربي ، للكشف عن القواسم المشتركة بينهما من حيث عوامل تكوينهما وصفاتهما . وذلك لاعطاء هذه الدراسة أبعادها الاجتماعية والثقافية أيضا ، مما يسهل على القارئ الاحاطة بمضامين بحثها مهما تتنوع وتشعب .

وأخيرا ، وللتثبت من صدق العلاقة الجدلية بين ((الشخصية العربية)) والحرف العربي . قد كرست الفصل السادس من هذا الجزء للحديث عن مسألة دوران الحروف العربية في الشعر العربي الأصيل والقرآن الكريم . وذلك لأبرهن على ثبات مقومات ((الشخصية العربية)) الثقافية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، على الرغم من مظاهر الانحلال السياسي والاجتماعي التي اعترتها في عصور انحطاطها .

وهكذا ، فإن مقولة فطرية اللغة العربية ،

شعب مغاير له في الجنس واللغة ، إذن لكانت الصلة انقطعت بين أصواتها وبين الطبيعة ، وبالتالي بين الجملة الصوتية للفظة العربية وبين معناها ، وذلك على مثال ما انقطعت الصلة بين الألفاظ في اللغات الغربية وبين معانيها ، لعله اقتباسها من لغات أم أعرق منها في القدم .

فلقد استقر رأي علماء اللغة الغربيون على أن اللغة هي مجرد مصطلحات على معان ، ليس بينها وبين الطبيعة ، ولا بين أصوات حروفها ومعاني الألفاظ أي صلة ، فأجمعوا على القول بأن اللغة : ((هي التعبير الرمزي بالذات وإن كان لها الأولوية على كافة أنماط الرمزية التواصلية)) .

ولقد كرست الجزء الأول من هذه الدراسة بفصله الخمسة ، للتثبت من صحة النتيجة الأولى المتأتية مباشرة عن الافتراض الأول حول صحة مقولة (فطرية اللغة العربية) ، من حيث بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان العربي ، والعلاقة الجدلية بين الحرف العربي والشخصية العربية .

فبدأت هذا الجزء بفصل خاص عن نشأة اللغة العربية وفطريتها ، وعن علاقاتها باللغات المكناة بالسامية ، وعن صراعاتها معها . كما تناولت بالتحصيل آثار مملكة (اييلا) العربية ، والخط المسند العربي ، وأصول الحركة الجسمية في لغتنا ، مستشهدا على ذلك ببعض مستحاثاتها من الحروف والألفاظ ، ثم عرجت أخيرا على دور الشعر العربي الأصيل في صناعة اللغة العربية وصياغة مفرداتها صياغة شاعرية محكمة ، تبرئها من كل شائبة اقتباس أو هجانة . وذلك كله للبرهان على صحة بداءة اللغة العربية وفطريتها .

كما كرست الفصل الثاني منه للحديث عن نشأة الانسان العربي ، وعن تطوره الحضاري في

لاتراهن على بدهاء الحرف العربي وفجرية الانسان العربي فحسب ، وإنما تراهن على أن الجزيرة العربية هي أيضا مهدهما ، ومهد الحضارات في المنطقة العربية .

ولكن علماء الآثار والتاريخ واللغات والأديان والأجناس ومن إليهم ، قد أهملوا الجزيرة العربية لظاهرة تصحرها ، في جميع تقصياتهم عن أصول الحضارة الانسانية البكر سواء في استثناس النبات أو الحيوان أو صناعة الأدوات أو أصول اللغات والعبادات وما إليها .

فما أن المكتشفات الأثرية العصرية تشير إلى أن تلك الأصول الحضارية المضيق ، تعود حتا إلى المنطقة العربية الراهنة ، فقد راح العلماء يبحثون عنها في البؤر الحضارية المعروفة في وادي الفرات والنيل ، وفي بلاد الشام دون جدوى . وذلك لأنهم أهملوا الجزيرة العربية في تقصياتهم لعل انطماس معالمها الحضارية البكر تحت طيات الرمال في عتات التاريخ . فكانوا بذلك كمن ضيع قطعة نقود ليلا في باحة معتمة ، فراح يبحث دون جدوى عنها بعيدا تحت أضواء المصايح التي تقع على أطرافها .

وهكذا كان هؤلاء العلماء يحارون في تعليل سبب بلوغ بعض الآثار المكتشفة في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية درجة متقدمة من التطور والرقى ، مما لا جذور حضارية سابقة لها في هذه المناطق .

ولكن عزا بعضهم تلك الظواهر الحضارية المتطورة إلى الجزيرة العربية ، كاستثناس النبات والحيوان مثلا ، كما سيأتي ، فلقد تحفظ بعضهم الآخر على هذا الزعم لخطورة نتائجه التاريخية . ومن هنا أنت الصعوبة التي اكتنفت تقصياتي المضنية عن زيادة الجزيرة العربية في الشؤون الحضارية بدءا من الحرف العربي والخط المسند العربي ، وانتهاء بفنون

استثناس النبات والحيوان وصناعة الأدوات . وذلك لم يكن لحرمان الجزيرة العربية من المكتشفات الأثرية فحسب ، وإنما لتعارض تلك الريادة من آراء معظم العلماء الذين عنوا بالمنطقة العربية .

على أن اعتراف أولئك العلماء بجهلهم معرفة منشأ تلك الأصول الحضارية قد هداني إلى استنباط المزيد من الأدلة القوية التي يصعب دحضها . على أن الجزيرة العربية هي مهد جميع الحضارات التي تشكلت حولها منذ الألف / 9 / ق.م ، في بلاد الشام وسواها كما سيأتي بشيء من التوسع والتفصيل .

الافتراض الثاني :

إذا صح أن الحروف العربية بديئة مقتبسة من الطبيعة ، فالافتراض أن يكون الانسان العربي قد استعان بها للتعبير عن مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية ، فكيف تم له ذلك ؟ فأجيب :

عندما لمس إنسان الجزيرة العربية الأشياء من حوله في فجره الحضاري البكر ، كان لابد له أن يعبر عن الأحاسيس اللسبية (خشونة ، نعومة ، حرارة ، برودة ، صلابة ...) ، بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، وذلك بغرض التواصل مع أبناء جنسه . وكان لابد لهذه الأصوات والحركات أن تتطور وتتهذب مع تطور ذلك الانسان ، عقليا وفنيا واجتماعيا وثقافيا ، فيسقط بعض الحركات الجسمية ، ويلطف بعضها الآخر ، وتختصر الأصوات الكثيرة في أصوات حروف معينة لابد أن تكون هي الأوحى على العموم بمختلف الأحاسيس اللسبية ، إذا ما صح هذا الافتراض .

وعندما تذوق الأشياء وشمها ونظر إليها وسمع أصواتها ، وعانى بعض الانفعالات الشعورية ، كان

الافتراض الثالث :

إذا صح أن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالافتراض أن توحى الأصوات ذاتها بمختلف الأحاسيس والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف قبل أن تنتمي إلى القطاع اللغوي ، تنتمي أصلا إلى القطاع الصوتي . ولقد اقتضاني البرهان على هذا الافتراض أن أقوم بدراسة تجريبية مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأصوات والحواس . فخلصت منها إلى تصنيف الحواس في هرمين حسيين اثنين :

الهرم الأول :

إن الحواس الخمس ، من حيث طبيعتها المادية ، أي من حيث تعاملها مع مادة الأشياء ، يمكن تصنيفها في هرم حسي سوى ، قاعدته في الأسفل وذروته في الأعلى . تبدأ قاعدة هذا الهرم بحاسة اللمس أشد الحواس مادية لتمامها المباشر مع مادة الأشياء التي تتعامل معها . ثم تأتي حاسة الذوق الأقل مادية في الطبقة الثانية ، فهي لا تتعامل إلا مع الخصائص الذوقية في الأشياء . وتأتي حاسة الشم في الطبقة الثالثة ، إذ لا تتعامل إلا مع الروائح المنبعثة عن الأشياء . ثم تأتي حاسة النظر التي لا تتعامل إلا مع الصور والألوان المنعكسة عن الأشياء . أما حاسة السمع ، أقل الحواس مادية وأكثرها تجردا فهي تحتل قمة الهرم ، لأنها لا تتعامل إلا مع الفعاليات المنبعثة عن الأشياء على شكل موجات من الاهتزازات .

الهرم الثاني :

أما الحواس من حيث قدرتها على استيعاب الأحاسيس الحسية واحتوائها ، فمن الممكن تصنيفها في هرم حسي ، منكوس ، ذروته في الأسفل ، وقاعدته في الأعلى .

لا بد له أن يعبر أيضا عن كل ذلك بحركات جسمية ملائمة ترافقها أصوات خاصة ، على مثال ما فعل باللموسات . وهكذا سقطت الحركات وتهذبت الأصوات عبر آلاف الأعوام ، فاختصرت في أصوات حروف معينة لا بد أن تكون على العموم هي الأوحى بمختلف الأحاسيس الذوقية والشمية والبصرية والسمعية وبمختلف المشاعر الانسانية .

وشأن اللغة العربية بصدد هذه الصلة اللاحقة أو اللاحقة التمثيلية بين الحروف في الألفاظ وبين معانيها ، شأن جميع اللغات البديئة إلا أن بقاء هذه الصلة في لغة معاصرة ما ، وعدم بقائها في لغة أخرى ، يرجع مبدئيا إلى مدى ارتباط الأمة مبدعة أصوات حروفها وألفاظها ببيئتها البكر ، وإلى تمسكها بلغتها الأم ، مرحلة حياة بعد مرحلة ، إلى أن تنضج لغتها في مراحل حضارية راقية .

وهكذا تحولت الألفاظ في اللغات الغربية على العموم إلى رموز ومصطلحات على معان ، لأن أصوات حروفها المستوردة فقدت صلتها بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأت فيها ، كما أن صلاتها باللغات الأم كالسنسكريتية ، أو اليونانية القديمة ، أو اللاتينية ، وما إليها ، قد تقطعت عبر مراحل انحلالها في لهجات محلية تطورت مع الزمن إلى لغات حية على أيدي أدبائها وعلمائها وسياسيها .

أما الانسان العربي فقد ظل مقيما في جزيرته يمارس مهنة الرعي إياها ، في ذات البيئة التي نشأت فيها أصوات حروفه ، لتتضح على مهل العصور في لغة لا أبلغ ولا أفصح ، في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم . ولذلك كان من طبيعة الأمور أن تتأصل هذه الصلة الفنية بين لغته وبين الطبيعة ، لتتأصل بذلك الصلة الراحنة بين الحروف العربية وبين الحواس والمشاعر الانسانية .

الأحاسيس الحسية والمشاعر الانسانية ، وأن الانسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات حروفه ، فالمفترض أن توحى هذه الحروف بذات الأحاسيس والمشاعر .

وللتحقق من صحة ذلك ، أخذت أتأمل صدى أصوات الحروف العربية في نفسي للكشف عن خصائصها وموحياتها حرفا بعد حرف . ولقد تبين لي أن هذه الحروف موزعة بالفعل بين الحواس والمشاعر الانسانية . لكل حاسة مجموعة من الحروف ، ولكل انفعال شعوري أساسي حرف خاص .

لقد اعتمدت بادىء الأمر تصنيفا خاصا للحروف العربية تبعا لموحياتها الصوتية ، دون أن أعير طريقة النطق بها أي انتباه . ولكن ما أن اهتديت مصادفة بعد إنجاز هذه الدراسة للمرة الأولى ، إلى أن الانسان العربي قد اعتمد الحركات الایمائية في بعض الحروف للتعبير عن معانيه ، كما في حرف (الفاء) ، حتى أعدت تصنيفها مجددا بما يتوافق مع خصائصها الایمائية أيضا .

وهكذا استقر الرأي أخيرا على جدول التوزيع التالي :

1 - لحاسة اللمس ستة حروف هي : (ت. ث. د. ذ. ك. م) .

2 - لحاسة الذوق حرفان إثنان هما : (ر. ل)

3 - لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي : (الألف المهموزة واللينه. ب. ج. س. ش. ط. ظ. غ. ف. و. ي).

4 - لحاسة السمع حرفان اثنان هما : (ز. ق).

5 - للمشاعر الانسانية سبعة حروف هي : (ص. ض. ن. خ. ح. هـ. ع).

أما حاسة الشم ، فلم أجد لها حرفا خاصا لها ، وإن كان لأصوات بعض الحروف إیحاءات شميه

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس في الذروة المنكوسة إلى أسفل . فملمس الأشياء لا توحى لنا بأي إحساس ذوقي أو شمّي أو بصري أو سمعي . وحاسة اللمس إنما هي كالغريزة الجنسية مغلقة على نفسها ، عمياء صماء عن كل إحساس آخر .

ثم تأتي حاسة الذوق في الطبقة الثانية . فمذاقات الأشياء تحتوي الأحاسيس اللمسية ، كل طعم يوحى بإحساس لمسي معين ، إلا أنه لا يوحى لنا بأي إحساس شمّي أو بصري أو سمعي . ثم تأتي بعدها حواس الشم والبصر فالسمع . كل حاسة منها تدرك أحاسيسها مباشرة ، كما تحتوي أحاسيس ما دونها من الحواس ، على مثال مالاحظناه في الحاسة الذوقية . أما المشاعر الانسانية ، فهي لشفافيتها المتناهية وتجردها المطلق عن المادة ، تحتوي بالضرورة أحاسيس الحواس جميعا ، ولكن من خلال معانيها :

فالحالة الشعورية التي تثيرها كلمة نابية أو نظرة شذراء مثلا ، قد تعاني النفس من معناها ما تعانيه الأصابع من وخز الابر ، وما يعانيه الذوق من مرارة الطعم ، والشم من كرية الروائح والبصر من قبيح المناظر والسمع من ناشز الأصوات منكراها .

ولقد عقدت فضلا خاصا عن الشعور في هذه الدراسة للكشف عن خصائصه ودوره في عمليتي إبداع أصوات الحروف العربية واستيحاء معانيها ، قد خلصت منه إلى أن الشعور الذي يعي ذاته بذاته ، يمكن اعتباره حاسة من نوع خاص ، فكان تصنيف الشعور كحاسة سادسة فوق قمة الهرم الحسي الأول ، وعلى امتداد قاعدة الهرم الحسي الثاني .

الافتراض الرابع :

إذا صح أن الأصوات توحى فعلا بمختلف

إلى جانب إيجاءاتها الخاصة الأخرى . كما في الخاء للروائح القذرة ، والطاء للروائح العطرة .

الافتراض الخامس :

إذا صح ما انتهينا إليه ، من الافتراضات السابقة ونتائجها ، فالمفترض أن يكون لذلك كله سنده من واقع اللغة العربية ، وذلك بأن يكون لخصائص أصوات الحروف العربية دورها الفعال في تكوين معنى اللفظة العربية وتحديد مضمونه .

وللتحقق من صحة ذلك لجأت إلى المعاجم اللغوية أستفتيتها الرأي عن مدى التوافق بين خصائص أصوات الحروف العربية وبين معاني الألفاظ التي تدخل في تراكيبها .

وعلى ألف مهل ، أخذت أتمعن صدى صوت كل حرف في نفسي ، وأتأمل طريقة النطق به لاستكشاف ما فيه من مختلف الخصائص الحسية والشعورية ، إيجائها وإيجائها على حد سواء .

ثم قمت باستخراج معاني جميع المصادر التي تبدأ بكل حرف على حده ، أرتبها في جداول خاصة تربط بين معانيها روابط حسية أو معنوية . فإذا وجدت أن معاني المصادر قد التزمت بخصائص الحرف موضوع الدراسة بنسبة مئوية عالية ، اكتفيت بها على العموم . أما إذا كانت النسبة منخفضة فألجأ إلى استخراج معاني المصادر التي تنتهي به أيضا .

وربما عمدت في بعض الأحيان إلى استخراج معاني المصادر التي يتوسطها مثل هذا الحرف ، وذلك للتأكد من مدى تأثير خصائصه في معاني المصادر التي يشارك في تراكيبها . وهكذا الأمر من حرف إلى حرف .

على أن المشقة البالغة التي عانيت منها كانت

تتمركز في اختيار المصدر ومعناه من بين عشرات المشتقات وعشرينات المعاني للكلمة الواحدة التي يتصدرها الحرف ، أو يتوسطها ، أو يقع في نهايتها . فأياها هو المصدر الجذر الذي تفرعت منه المشتقات ؟ ثم أيها هو المعنى الأصل الذي تشعبت منه المعاني ؟

فمن ألفين وتسعمائة وواحد وثلاثين مصدرا ومشتقا تبدأ بحرف النون في المعجم الوسيط . ومن آلاف المعاني ، وقع اختياري على ثلاثمائة وثمانية وستين مصدرا جذرا ، قد اعتمدت لكل منها معنى أصلا واحدا أو معنيين اثنين في قليل من الأحيان .

ولكن بما أن اللغة العربية فطرية النشأة مقتبسة من الطبيعة ، فلقد كان من منطوق الأمور أن أختار المصدر صاحب المعنى المحسوس باعتباره الألفاظ بالطبيعة والأقرب إلى الفطرة ، على أنني لم ألتزم بهذه القاعدة الحسية أحيانا بصدد الحروف الشعورية (هـ . ع . ح . خ . ص . ن . . .) لأن العربي قد أبدعها أصلا للتعبير عن معان شعورية غير محسوسة في مرحلة لغوية متطورة كما سيأتي .

ولقد تبين لي أن المصادر قد التزمت معانيها بخصائص أصوات الحروف القوية التي تبدأ بها وبخصائص الحروف الرقيقة التي تنتهي بها ، بنسب راوحت بين (50 - 90) في المئة من مجموع المصادر .

الافتراض السادس :

إذا صح ما توصلنا إليه من خصائص الحروف العربية ومعانيها ، فالمفترض أن يكون المعنى الأصل لكل مصدر هو محصلة معاني حروفه . وهذا هو الامتحان الأصعب .

ولكن هل تكفي معرفة معاني ثمانية وعشرين حرفا ، لمعرفة معاني عشرات الألف من المصادر ومشتقاتها ؟

بخصائص حروفه ومعانيها ، ثم بكيفية ترتيبها ، وأخيرا
بجملتها الصوتية .

وهذه المعطيات الثلاثة ، وإن زادت المسألة تعقيدا ،
إلا أنها هي التي تكشف لنا عن تلونات معنى كل
مصدر من المصادر ، وإن شارك غيره في ذات
الحروف ليستحيل بذلك وجود لفظتين اثنتين في اللغة
العربية بمعنى واحد ، وإن أشارتا إلى ذات الحدث ،
أو ذات الشيء ، فالمترادفات معدومة في اللغة
العربية .

ولقد عقدت فصلا خاصا في هذه الدراسة
للتثبت من صحة هذا الافتراض بعنوان (في التطبيق
على خصائص الحروف العربية ومعانيها) ، قد
استخرجت فيه معاني ستين كلمة .

والتزاما بموضوعية البحث ، وحذرا من تهمة
التحيز لصالح هذه الدراسة بمعرض اختيار الأمثلة ،
ورغبة مني في تحديد المعاني الأصل لكثير من
مفاهيمنا المتداولة ، فقد عمدت إلى حصر هذه
الأمثلة من الكلمات في قطاعات أربعة ، هي :

الأحداث في الطبيعة ، والقيم ، والنقائص ،
والمفاهيم الفلسفية والاجتماعية . ولما كان كل ثلاثي
قد جاء من مقطع جذر ثنائي الحروف بزيادة حرف
ثالث ، وكان كل مقطع ثنائي قد جاء من حرف
جذر بزيادة حرف ثان ، فلقد عمدت إلى استخراج
معنى كل كلمة منها وفق طرائق أربع :

بالرجوع إلى معناها في المعاجم ، ثم إلى معاني
أسرتها من المشتقات ، فإلى معاني مقاطعها الثنائية
الحروف ، وأخيرا إلى خصائص حروفها المتحصلة
لدينا من هذه الدراسة .

وقد لوحظ أن المعاني المستخرجة للكلمة
الواحدة بحسب هذه الطرائق الأربع ، كانت على
العموم تتضافر على الكشف عن معناها الأصل ،

فإذا عرفنا معاني حروف مصدر معين ،
وجمعنا بعضها إلى بعض ، هل يكون حاصل جمع
معانيها هو معنى المصدر إياه ؟ ولكن معنى (كلم)
غير معنى (لكم) ومعنى (برق) غير معنى (رقب)
وهكذا .

ومنه يتضح أن ترتيب الحروف في المصدر له
الدور الأهم في تحديد معناه ...
وهذه الأهمية ترجع أصلا إلى أن العربي كان في البدء
يتقمص الحدث والشيء في الطبيعة فيعبر عن ذلك
بأصوات حروف تتوافق خصائصها مع حركة
الحدث أو مع شكل الشيء . وهكذا كان يخصص
لكل منهما اللفظة التي يضاها الحرف الأول منها
بدايته ، ويضاها الحرف الثاني منها وسطه ،
ويضاها الحرف الأخير منها نهايته . وذلك : (سوقا
للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد) ،
كما قال ابن جني في خصائصه .

وهكذا كان العربي يصور حركة الحدث
وشكل الشيء في الطبيعة بأصوات حروفه تصويرا
سينائيا أو فوتوغرافيا ، إن صح التعبير . وطبيعي إذن
أن تختلف مواقع الحروف في اللفظة تبعا لاختلاف
حركة الحدث أو شكل الشيء ، وأن يختلف بالتالي
معنى اللفظة باختلاف مواقع حروفها .

كما يضاف إلى ما سبق ، أن ترتيب أصوات
الحروف في اللفظة ، سواء بما يضيفي الانسجام على
جملتها الصوتية ، أو بما يشيع الاضطراب والنشاز
فيها ، له تأثيره البالغ أيضا في محصلة معاني حروفها .
فالألفاظ التي في جملها الصوتية تناسق وانسجام ، قد
خصها العربي على العموم بما يتوافق معها من المعاني
التي فيها رقة وأناقة وجمال وسمو وفعالية ، وما إليها
من جيد المعاني إلا ما ندر . والعكس بالعكس
صحيح .
وهكذا يتحدد معنى المصدر الجذر بأمور ثلاثة .

المحسوس ، وعلى مدى صدق حدسه الفني الذكي البكر بمعرض استنباط الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية للألفاظ وبين المعاني المجردة ، مما يكشف عن عمق نظرة الانسان العربي في الوجود .

وهكذا بانتهائنا مع الافتراض السادس إلى هذا التطابق بين معاني حروفها على وجه ما سبق بيانه ، فإن هذه الحقيقة تنسحب بالضرورة على جميع الافتراضات السابقة ، بدءاً من فطرية اللغة العربية ، وانتهاء بما تحصل لدينا من خصائص الحروف العربية ومعانيها .

الافتراض السابع :

كل أثر فني أصيل يحمل بالضرورة نفحة من روح مبدعه الفنان ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر أو نحتاً أو لوحة أو شعراً أو قطعة موسيقية . فلا يصعب على ذواقة الفنون الاضلاء مع هذا الطابع المميز ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب إلى أصحابها .

فإذا صح ما سبق وافترضناه ، من أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عفو فطرته السوية ليعبر بها عن أحاسيسه ومشاعره ، فإنه لا بد للحرف العربي أن ينطبع بطابع الشخصية العربية .

فتعامل الانسان العربي مع هذه المادة الصوتية من الحروف طوال آلاف كثيرة من الاعوام قد أنشأ علاقة عضوية متميزة بين شخصية الانسان العربي وبين خصائص الحرف العربي .

فكما أن الانسان العربي قد مازج بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية فيما هو أصيل من تقاليده وعاداته ومؤسسته ، فكانت المقامات الرفيعة وقفا على ذوي المواهب والمناقب والميول السامية والعكس بالعكس صحيح ، إلا فيما ندر ، كما سيأتي ذلك

بكثير من الدقة والوضوح ، كما كانت تكشف عن أسباب تنوع معاني المصدر الواحد ومشتقاته ، وإن تناقضت في بعض الأحيان . كما كانت تكشف أيضاً عن أخطاء المعاجم في تفسير بعض الكلمات ولقد أشرت إلى تلك الأخطاء أحياناً .

ولكن كيف كان السبيل إلى معرفة المعنى غير الحسي في المفهوم الفلسفي المجرد ، من لفظة قد أبدعت أصلاً للتعبير عن معنى محسوس ؟

لما كان من المتعذر أصلاً على العربي تقمص المعاني المجردة غير المشخصة ، وهرباً من الرمزية الاصطلاحية التي تتعارض مع نزعة الفنية ، فقد عمد إلى الافادة من وجود علاقة ذهنية معينة تربط بين المعنى الحسي لمصدر جذر معين ، وبين المعنى غير الحسي الذي يجول في خاطره ، فاستعار المصدر بالذات أو واحداً من مشتقاته ، للتعبير عن هذا المعنى المجرد .

وهكذا كان لا بد لي من بذل المزيد من الجهد للكشف عن الرابطة الذهنية بين المعاني الحسية الأصلية للكلمات وبين معانيها غير الحسية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمفاهيم الفلسفية ، كما في عقل البعير (ربطه) ، وعقل الأشياء (أدرك كنهها) . العدل ، بكسر العين والعدالة ، الحق بضم الحاء والحق بفتحها ...

ولو أنني اقتصررت في الأمثلة المضروبة من الكلمات ، على ما يدل على المعاني الحسية ، لما لاقيت في استنباط معانيها أي صعوبة تذكر ، بمجرد الرجوع إلى معاني حروفها . ولكنها الموضوعية في البحث ، والنزاهة في التقصي .

على أن هذه المفاهيم الفلسفية ، وما إليها من القيم والنقائص ، قد أتاحت لي فرصة نادرة للكشف عن قدرة ذهن العربي على التجريد انطلاقاً من

الفردية في القافية ، قبة لكل بيت من الشعر الجاهلي ،
ثم في الحروف النورانية يرتل المؤمنون أصواتها بخشوع
ما يرتلون آيات الله في قرآنه الكريم .

كما بلغت شخصية الانسان العربي أقصى
أبعادها في البطل قبة لكل قبيلة ، وفي النبوة قبة لكل
مرحلة .

ومع هذا التطابق الأخير بين ((شخصية))
الانسان العربي ، و ((شخصية)) الحرف العربي
نكون قد انتهينا من هذه السلسلة من الافتراضات
ونتأجها إلى حقيقة ثابتة أخيرة تنسحب بحكم المنطق
الرياضي على ما سبقتها من الافتراضات والنتائج إلى
أن نصل إلى مقولة :
((فطرية اللغة العربية)) .

مفصلا في كتابي المقبل ((الجدور الثقافية في
الشخصية العربية)) - كذلك سلك الانسان العربي
هذا النهج الفني الأخلاقي إياه مع حروفه ومعانيه .
فالخروف التي في أصواتها تناسق وانسجام وفعالية ،
قد خصصها العربي بما يتوافق مع صداها المحبب في
النفس ، من معاني الشهامة والسمو والصفاء
والفعالية ، وما إليها من القيم الجمالية والانسانية . أما
الحروف التي في أصواتها ففجاجة واضطراب ورخاوة
ونشاز ، فقد خصصها بما يناسبها من معاني القبح
والنقائص الانسانية ، كما سيأتي مفصلا في دراسة
الحروف العربية . روابط صحيحة متبادلة بين القيم
الجمالية في أصوات الحروف العربية ، وبين القيم
الانسانية في معانيها ، تؤكد صحة ما ذهبت إليه من
أنه (لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن) .

على أن الحرف العربي قد بلغ أقصى أبعاده